الكرامة الإنسانية في المسيحية والإسلام والمواثيق الدولية
-دراسة تحليلية مقارنة-

د. آسيا شكيرب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة

ملخص

تهدف المقالة إلى النص الديني بحث إحدى القيم الأساسية الثابتة للإنسان؛ وهي الكرامة الإنسانية. وهي مسالة بحثها أهل الاختصاصات المختلفة؛ وكل له زاويته التي ينظر منها.

نود بحثها من زاوية في الديانتين المسيحية والإسلامية. بغرض تجلية العلاقة بين المفاهيم المستقاة من النصوص الدينية، وبين المواثيق الدولية. وسوف نعرج على الجانب المفاهيمي أولا ثم نبحث أصل ثبوت الكرامة الإنسانية في نصوص كلا الديانتين؛ ثم آليات حفظها فيهما، ونصل أخيرا إلى استخلاص علاقتهما بالمواثيق الدولية من خلال النظر في الشرعية المتكلمة عن حقوق الإنسان.

Abstract

This article aims to discuss one of the basic human values: is human dignity. The subject was treated by many researchers of different disciplines; and each one had his point of view. We have tried, to highlight the relationship between the different concepts about dignity; Christianity and Islam and its origins of relixing on the holy texts in targeting the mechanisms to maintain it. Finally we have drawn out the relationship of human dignity with (to) international instruments of human rights.

مقدمة

يشهد عالمنا المعاصر هزّات قيمية مختلفة، أفرزتها الأوضاع الحضارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، وقد واكب هذه التغيرات إحساس الأفراد والجماعات

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

في كثير من أوضاعهم وحالاتهم بانتهاك كرامتهم الإنسانية.

ويعد موضوع الكرامة الإنسانية محورا أساسيا لمضامين المواثيق الدولية المعاصرة، كما أنه شكّل موضوعا أصيلا في النصوص الدينية، خاصة النصين الإسلامي والمسيحي، مما يجعلنا نطرح إشكالا معرفيا نصوغه كالآتي: إلى أي مدى يمكن إيجاد أسس جامعة للكرامة الإنسانية في عصرنا هذا من خلال النصوص الدينية والمواثيق الدولية؟ وما علاقة الكرامة الإنسانية بالحقوق المختلفة؟

لقد ارتأيت أن أبحث موضوع: **"الكرامة الإنسانية في النص الديني الإسلامي والمسيحي والمواثيق الدولية"** بمنهج تحليلي مقارن، أحاول من خلاله تفكيك عناصر الموضوع المختلفة، وإعادة تركيبها بعقد مقارنات داخل عناصر الموضوع، في كل من النصوص الدينية الإسلامية والمسيحية والمواثيق الدولية.

وترمي هذه الدراسة إلى النظر في النصِّ الدِّينيِّ المقدَّس في كلٍّ من الإسلام والمسيحيَّة؛ وإلى الكيفيَّة التي يقرِّر بها مفهوم الكرامة الإنسانيَّة؛ في خطوةٍ أولى من أجل فهم الآليات والأساليب التي سلكها التَّشريع في كلِّ ديانةٍ من أجل حفظ الكرامة الإنسانيَّة. وبحث وجود إمدادات كل منهما للمواثيق الدولية إن وجدت سابقاً، أو آفاق الاستمداد ومجالاته.

المطلب الأوَّل: مفهوم الكرامة

1. مفهوم الكرامة لغةً

يفيدنا ويعيننا ههنا أن ننظر في أصل الكلمة لمعرفة قياس الباب، وإدراك خصائص المعنى، يرى ابن فارسٍ أنَّ "الكاف والراء والميم" أصلٌ صحيحٌ له بابان: أحدهما –وهو الذي له علاقةٌ بموضوع البحث– شرفٌ في الشيءِ في نفسه، أو في خلق من الأخلاق. يقال: رجلٌ كريمٌ، وفرسٌ كريمٌ، ونباتٌ كريمٌ؛ وأكرَمَ الرجل إذا أتى بأولادٍ كرامٍ...[1]. فإذا انطلقنا ننظر في المادة المعجمية التي نبغيها؛ وجدنا المعاني البديعة الشريفة

1. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: **المقاييس في اللغة**؛ ت. شهاب الدّين أبو عمرو، (بيروت، دار الفكر)، ص 923.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

السامية للمفردة: الكَرَمُ: ضدُّ اللُّؤم... وأكرمه وكرَّمه: عظَّمه ونزَّهه. والكريم: الصَّفوح... وله عليَّ كرامةٌ، أي عزازةٌ... وكريمتُك: أنفُك، وكلُّ جارحةٍ شريفة كالأذن واليد؛ والكريمتان: العينان.[1]

وفي اللُّغات الأوروبية ظهرت هذه العبارة: "الكرامة الإنسانية" نحو العام 1155م، ونجد أنَّ مقابل لفظة: "الكرامة" لوحدها هو اللفظة اللاتينية "Dignitas" التي لها معنيان أساسيان، نجدهما في القانون جميعاً:

مسؤولية تبوئ صاحبها مكانةً بارزةً؛

و/أو: الاحترام والتقدير الذي يستحقهما شخص أو شيءٌ ما...[2].

2. مفهوم الكرامة الإنسانية اصطلاحاً

إنَّ الكرامة في الاصطلاح لا تبعد عن معناها اللُّغوي قيد أنملة؛ إذ تعريف الكرامة الإنسانية يكافئ تعريف إنسانية الإنسان. وبالنتيجة كيف نعرفها من دون أن نحجِّمها؟ فهي عادةً تُقرن بالحقوق التي تنبثق عنها[3]. ثمَّ إنَّ الكرامة ليست معياراً؛ إنَّما هي مفهومٌ، وتصور لصيق بشدَّة بالطبيعة الإنسانية، بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي[4].

تقوم الكرامة الإنسانية على كون الإنسان أكثر من حقيقة بيولوجية؛ وأكبر مما يصنع أو يعمل، ولا يمكن اختزال الإنسان وقيمته إلى بُعدٍ معيّنٍ من كيانه، أو مرحلة من عمره. ولا يمكن حصر الإنسان وقيمته في دور منوطٍ به، أو وظيفة يقوم بها. فالكرامة الإنسانية هي غاية الحياة الإنسانية، أي الأفق الذي يدعو إلى التقدم نحوه، كتطلّب مستمر للنمو، ودعوة متجدّدة للتطور. فبإمكاننا اعتبار الكرامة الإنسانية إحساساً، يُلزمنا أن نحترم الإنسان بكلّيتهِ، كونَه كائناً إنسانيًّا، مهما كانت حياته، وفي أي وقت

1. مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، ت. خليل مأمون شيحا؛ ط2، (بيروت: دار المعرفة، 2007م)، ص 1127.

2. La Dignité Humaine : La réinsertion socio juridique des démunis, p.17

3. C. GUASTADINI : Droit pénal et droits de l'homme ; La Dignité en prison : genèse et avènement, (Paris : Buenos books international), p. 31

4. Ibid.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

كان، ومهما كان مظهره البشري الخارجي (جميلا أو قبيحاً)[1].

بقي أن ننبِّه أخيراً على أنَّ مبدأ الكرامة الإنسانية ليس بجديد؛ وإنَّما توظيفه في القانون الوضعي هو الذي تمَّ في عهدٍ قريب[2].

المطلب الثاني: ثبوت الكرامة الإنسانية

بعد ما سُقناه من المعاني الجميلة، لغةً واصطلاحاً للكرامة الإنسانيَّة؛ نجد أنفسنا نتساءل عن منبع ثبوتها، فلننظر إلى ذلك كالآتي:

1. منبع ثبوت الكرامة الإنسانية من خلال النصّ الدِّيني الإسلامي

إنَّ النصوص الدِّينيَّة في الإسلام كتاباً وسنَّةً، ترشدنا إلى أنَّ أساس التكريم للمخلوقات مستمدٌّ من خالقها؛ فهو أعلم بها ظاهراً وباطناً، وهي مُلْكُهُ، وهو ديَّانُها، وإليه مصيرُها؛ قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[3].

وعليه فالله تعالى كرَّم الإنسان بخلقه ابتداءً، حين خلقَهُ في صورةٍ حسنة: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾[4].

فالكرامة الإنسانيَّة ثابتة بالخلق: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[5]. وقد ارتبط خلق الإنسان الأوَّل بمظهر تكريمٍ له، ومن خلاله ذرِّيته؛ ذلك كان بإسجاد الله تعالى ملائكته

1. سامر نمرود عزيز: **كرامة الإنسان في المفهوم المسيحي**، موقع "مؤسسة مدارك لدراسة آليات الرقي الفكري"؛ اقتبس يوم 2013/07/14م، على الرابط الآتي:

http://www.madarik.org/mag1/7.htm

2. Droit pénal et droits de l'homme ; La dignité en prison : genèse et avènement, Op. Cit., p.32

3. الحج: 18.

4. التِّين: 4.

5. الإسراء: 70.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. وقد زوِّد بقدرة البيان الصادر عن موضوع، ومحلٍّ أرقى مجالات الفكر[2]: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3].

وحين جعل الله تعالى الإنسان خليفةً في الأرض، جعل له كرامةً بتسخير ما فيها له: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]. كما شُرِّف إذ كلِّف وغدا مسؤولاً[5]: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[6].

ثمَّ إذا كانت الكرامة الإنسانية ثابتةً للناس جميعاً على السواء بالخلق والإيجاد السويَّين؛ فإنَّ الله تعالى قد جعل النَّاس يتفاوتون بعد ذلك في درجة الكرامة عنده، بحسب ما يكسبون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[7]. وأكرم ولد آدم هو محمَّدٌ ﷺ؛ قال جبريل عليه السلام للبراق: «فما ركبك أحدٌ، أكرمُ على الله منه»[8]. وهذا التفاوت هو تفاوتٌ مرتبطٌ بتحقيق الخيرية بالعمل والتقوى، فإنَّنا مع إقرارنا بالتَّمايز الطبيعي بين النَّاس، في الإمكانات والمقدرات؛ لا نرى أبداً أنَّ هذه الفروقات الطبيعيَّة هي بحجم التَّفاوت الاجتماعي المصطنع[9]؛ فلا ينبغي أن ينتج من ذلك تفريقٌ في ضمان الكرامة للنَّاس.

1. البقرة: 34.
2. محمود عكَّام: **الإسلام والإنسان**، ط2، حلب: دار فصِّلت للدراسات والترجمة والنَّشر، 1999م، ص 34.
3. العلق: 5.
4. الجاثية: 13.
5. محمود عكَّام: **الإسلام والإنسان**، ص 36.
6. الأحزاب: 72.
7. الحجرات: 49.
8. مسلم، ح 3131، ص703.
9. رضا سعادة: **الفلسفة ومشكلات الإنسان: منافذ إلى الحقيقة والحرِّيَّة والعدالة الاجتماعيَّة**، =

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

2. منبع ثبوت الكرامة الإنسانية من خلال النصّ الدِّيني المسيحي

إنَّ النَّص الديني المسيحي المدوَّن في الكتاب المقدَّس[1] يرسم خطوط ثبوت الكرامة الإنسانية؛ ويبتدئها بقصَّة الخلق الواردة في سفر التكوين؛ وتحديداً في الإصحاح الأوَّل منه، في الفقرة السادسة والعشرين؛ فالكرامة الإنسانية الحقَّة –عندهم– ليست بمجرَّد وجود الإنسان بوصفه عالماً صغيراً؛ وإنَّما بسبب خلقه على صورة الله[2]. ورد إذاً الآتي: «**وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كلِّ الأرض، وعلى جميع الدبَّابات التي تدبُّ على الأرض**»[3]. ثمَّ في الفقرتين التاليتين له: «**فخلق الله الإنسان على صورته؛ على صورة الله خلقه؛ ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله، وقال لهم: أثمِروا واكثُروا، واملأوا الأرض، وأخضِعُوها؛ وتسلَّطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء؛ وعلى كلِّ حيوانٍ يدبُّ على الأرض**»[4].

وقال المرنِّم في المزامير: « **أيُّها الرب سيّدنا: ... فمن هو الإنسانُ حتَّى تذكره؟ وابن آدم حتَّى تفتقده؟ وتنقصه قليلاً عن الملائكة، وبمجدٍ وبهاءٍ تكلِّله؟ تسلّطه على أعمال يديك. جعلت كلَّ شيءٍ تحت قدميه... أيُّها الرَّب سيدّنا:**

= (بيروت: دار الفكر اللبناني؛ 1990م)، ص 101.

1. الكتاب المقدَّس Bible هو الاسم الذي يطلق على مجموع الأسفار المقدَّسة التي يؤمن بها النَّصارى؛ وفي العبرية سفر والجمع "هاسفريم" ترجم إلى اليونانيَّة ليعبِّر عن اللفائف التي كتبت فيه الكتابات المقدسة، ثمَّ ترجم إلى اللاَّتينية ومنها إلى اللغات الأوروبية الحديثة. واشتقاق اللفظة يوناني إمّا من **βίζλος** أو من **βύζλος**. وكان يدل في البداية على اللفائف papyrus ثمّ على ما هو مكتوب فيها. وأخذت الكنيسة اللاتينية هذا المعنى واللفظ من الكنيسة اليونانية، الذي يصف الكتب، وجعلوه لا مذكرا ولا مؤنّثا Bibliorum – biblia (neutre) وفي العصور الوسطى عدّت لفظة Biblia مؤنّثا. انظر:

F. Vigouroux ; et autres : Le Dictionnaire de la Bible ; 2ème tirage ; (Paris : Letouzey et Ané Editeurs ; 1912), (1/1775-1776).

2. Roultage : Christian Theology : (New York-USA ; London-GB, 2005), p.53

3. تك 1/ 26.

4. تك 1/ 27-28.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ما أمجد اسمك في كلِّ الأرض»[1].

هذه الصلة بين الإنسان وخالقه هي أساس كرامته وما يتمتع به من حقوق أساسية راسخة، كفيلها الله نفسه. هذه الحقوق الشخصية يوازيها، بلا شك، واجبات اتجاه الآخرين[2]. فحديث المسيحيِّين عن الكرامة الإنسانية –في ربطه بالنَّص– إنَّما يتمُّ بمزجه بالتَّدبير الخلاصي، الذي يبتدئ وفق المنظور المسيحي بسقوط آدم عليه السلام في الخطيئة ومن ورائه ذرّيته؛ لتنكسر العلاقة الجميلة التي أرادها الله تعالى بينه وبين البشر؛ فهم يرون كون الإنسان مخلوقاً على صورة الله، هو تقرير عميق على السواء لعلاقة الحب الوطيدة بين الله، وكل إنسان؛ وكذلك كرامة كل فرد[3]؛ ولكنها علاقةٌ انفصمت كما رأينا؛ فجعل الله تدبيرا خلاصيًّا لإعادة تلك العلاقة، ذلك بإرسال ابنه الوحيد فيما يرون –تعالى الله عن الصاحبة والولد– وفي هذا قال بعضهم:

« والعهد الجديد يُذكِّر بكرامة جميع البشر ووحدتهم الأساسية والتزامهم بالأخوّة؛ كيف لا وقد حقق لهم المسيح جميعاً وبالتساوي نعمة الخلاص وضمِّ الشمل. فسِرُّ التجسُّد يوضح لنا إلى أيِّ حدٍّ أكرم الله الطبيعة البشرية، وقد أراد لها، في ابنه، أن تتّحد بطبيعته، بدون اختلاطٍ ولا انفصالٍ؛ وهكذا تمَّ اتِّحاد المسيح، نوعاً ما، بكل إنسان. والمسيح هو، بوجهٍ فريدٍ، "**صورة الله الذي لا يُرى**"؛ وفيه وحده تتجلى ذات الله بوجه كامل في مَسكَنَةِ الطبيعة البشرية التي تلبّس بها بطريقة حرّةٍ»[4].

وهم يرون أنَّ الكرامة يتساوى فيها الخلق أجمعون –بلا مزيَّةٍ لأحدٍ على أحدٍ–: من أجل كلِّ هذا فإنَّه يوجد شعبٌ مختارٌ في المسيح واحدٌ؛ ربٌّ واحدٌ، إيمانٌ واحد، معموديَّة واحدة[5] ولأنَّ [الكلام الآتي لبولس الرسول]: «**كلّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد**

1. مز8/ 1؛ 3 -7، 9.

2. أنظر مقالة: **كرامة الإنسان في المفهوم المسيحي**، موقع سابق.

3. Encyclopedia of Religions ; 2nd edition ; (USA : Macmilan reference). (4/ 2590).

4. **كرامة الإنسان في المفهوم المسيحي**، موقع سابق.

5. أف 4/ 5.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

لبستم المسيح. ليس يهوديٌّ ولا يونانيٌّ؛ ليس عبدٌ ولا حرٌّ؛ ليس ذكرٌ وأنثى. لأنَّكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع؛ فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم»[1]. يتبع هذا أنَّ هناك **"كرامةً متساويةً"** لدى كلِّ عضوٍ في شعب الله؛ **«كرامةً ومجداً موهوبَيْنِ من الله، بسبب انتساب هذا الشَّعب للمسيح -الابن الوحيد- الذي سبق وأخذ من الله الأب كرامةً ومجداً»**[2]. لذلك ففي إطار شعب الله لا يوجد تفاوتٌ في الكرامة لعضوٍ على عضوٍ، طالما أنَّ الكرامة والمجد الممنوحين لشعب الله هما أساساً كرامةٌ ممنوحة، ومفاضة على الذين صاروا أبناءً لله بالنِّعمة، من كرامة ومجد ابن الله، اللَّتين نالهما من الأب، باعتباره ابناً بالطبيعة[3].

والتصوُّر المسيحي للكرامة الإنسانيَّة ينطلق كذلك من الوعي بماهية الإنسان؛ فمن بين جميع الخلائق المرئية، الإنسانُ وحده يستطيع أن يعرف خالقه ويحبَّه؛ إنَّه على الأرض الخليقة الوحيدة التي أرادها الله لذاتها؛ إنَّه وحده المدعو إلى المشاركة في حياة الله بالمعرفة والمحبَّة. لقد خلق لهذه الغاية، وهذا هو سبب كرامته الرئيسي[4]. والله خلق كلَّ شيءٍ للإنسان؛ ولكن الإنسان خُلق لخدمة الله ومحبَّته[5]. وحين خلق الله الإنسان آخر المخلوقات كلِّها[6]... كان شرفاً له وفضلاً أن يُخلق أخيراً: كان شرفاً له من ناحية أنَّ أسلوب الخلق تطوَّر ممَّا هو أقلُّ كمالاً، إلى ما هو أكثر كمالاً. وكان فضلاً، لأنَّه لم يكن من المناسب أن يسكن في المكان الذي خُصِّص له، إلاَّ بعد أن يُجهَّز له تماماً،

1. غلا 3/ 27-29.
2. 2 بط 1/ 17.
3. **التدبير الإلهي في تأسيس الكنيسة وترتيب نظام الكهنوت**، ط1، (الدار [ ] ،1997م)، ص42-43.
4. **التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة** (CATECHISMUS CATHOLICAE ECCLESIAE): تعريب المتروبوليت حبيب باشا؛ المطران يوحنا منصور؛ المطران كيرلس سليم بسترس، الأب حنَّا الفاخوري؛ (لبنان: المكتبة البولسيَّة، ومنشورات الرُّسل)، ص 124.
5. المصدر نفسه.
6. في اليوم السادس حسب رواية الخلق في سفر التكوين.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ويُعدَّ لاستقباله؛ وفور أن خُلِق الإنسان وجد كلَّ الخليقة المرئيَّة أمامه؛ لكي يتأملها، وينال منها راحته[1].

وتأمُّل شرف الإنسان في خلقته يكون بالنظر إلى الإنسان بكامله من خمسة وجوه حسبهم:

1. الإنسان صورة الله؛ وهو مدعوٌّ إلى التشابه الكامل...
2. إنَّه نسمة حياة تأتي من الله...
3. إنَّه جسدٌ، أي خارجٌ من الأرض أيضاً...
4. إنَّه روحٌ، أي منفتحٌ لله ولمعرفته...
5. إنَّه جسمٌ، أي قدرةٌ على التَّعبير عن نفسه في الخارج، وعلى الاتِّصال...[2]

ومن الكرامة التي أُعطِيَها الإنسان حسب النَّص الدِّيني المسيحي هو تسخير المخلوقات له: فإنَّ الله قد أعطى للإنسان سيطرةً على كلِّ المخلوقات الأدنى منه... وعلى الرُّغم من أنَّ الإنسان لا يَعُول أيًّا منها؛ إلاَّ أنَّه أعطي سلطاناً عليها. لقد أراد الله بهذا أن يخلع على الإنسان كرامةً؛ فعناية الله مستمرَّةٌ للإنسان، لتوفِّر له سلامته، ولإعالته في معيشته[3]. وكما أنَّ الله يسود على الأرض بعناية محبَّته، علينا نحن أيضاً أن نسود عليها؛ فقد عهد الله للإنسان أن يتسلَّط على الأرض، وهذا يتضمَّن مسئوليَّته من نحو البيئة، والمخلوقات الأخرى التي تشاركنا في هذا الكوكب[4].

وذلك كان من دون استحقاقٍ على الله؛ إذ يرى بعضهم أنَّه حين نتكلَّم عن الاستحقاق من الله؛ لا بدَّ أن نفهمه بمعنىً خاص؛ إذ ما من أحدٍ يستحقُّ في حدِّ ذاتِهِ؛ لا نعمةَ الله، ولا الثبات إلى النِّهاية. ففي هذه الحال، يعني الاستحقاق أنَّ عطايا الله

1. متَّى هنري: **التَّفسير الكامل للكتاب المقدَّس**، ترجمه جماعة تحت إشراف المعلِّم الأستاذ جوزيف صابر، ط1، (القاهرة: إيجلز، 2011م)، ج1، ص14.
2. صبحي حموي اليسوعي: **معجم الإيمان المسيحي**، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون،ط1، (بيروت: دار المشرق، 1994م)، ص 70.
3. متَّى هنري: **التَّفسير الكامل للكتاب المقدَّس**، ج1، ص15.
4. **التفسير التَّطبيقي للكتاب المقدَّس**، ط5، (القاهرة: ماسترميديا، 2004)؛ ص9.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

فعَّالةٌ، أي أنَّ الله ينعم بما يلزم لإدراك الغاية التي يُعِدُّ لها بعطِيَّتِهِ[1].

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أنَّهم يقرِّرون أنَّه ما أُعطي للإنسان إلاَّ بعضاً من كرامة الله، الذي هو صورة الله، لكن مثل الخيال في المرآة، أو مثل صورة الملك على قطعة من العملة[2]. إذ لا تعني العبارة: **"لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا"** أنَّ الله خلقنا مثله تماماً، وبخاصَّة بالمعنى الطبيعي الجسدي. بل بالحرِيِّ أنَّنا نعكس مجد الله... وأعظم آمالنا أن نعكس طبيعته عن طريق محبَّتنا وصبرنا وصفحنا ولطفنا وأمانتنا... إنَّ قيمتنا هي في إدراكنا أنَّ الله قد خلقنا على صورته[3]. كما يقول النصارى.

3. منبع ثبوت الكرامة الإنسانية حسب المواثيق الدولية

التَّاريخ الشائع لنشأة مواثيق حقوق الإنسان؛ هو تاريخٌ إذا تأملناه وجدناه: التَّاريخَ الأوروبي لحقوق الإنسان. فليس فيه قليلٌ أو كثيرٌ عن الفكر، أو الشرائع التي عرفتها حضاراتٌ قديمة وكثيرة غير أوروبيَّة عن حقوق الإنسان[4]. وسنبين في المطلب الأخير كيف أنَّ الدِّين قد سبق القانون في هذه الأمور؛ وكيف أنَّ الإسلام له نظرةٌ شموليَّة لمسألة الحقوق، تتعدَّى حدود المكان والزمان، والخصوصيَّات المختلفة.

كما أنَّ التقعيدات والفلسفات المختلفة، التي كانت إرهاصاتٍ، صيغت أخيراً في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ نشأت في ظروفٍ فكريَّة في ظلِّ الصراع ضدَّ الكنيسة، ممثِّلةِ الدِّين في أوروبا؛ فقد قام صراع السلطة العلمانية ضدَّ سلطة الكنيسة؛ وسعى هذا الصراع في اتِّجاهاتٍ ثلاثةٍ هي: مقاومة القضاء الكنسي، تقليل الاختصاص الكنسي؛ تبعية القضاء الكنسي للقضاء الملكي[5]. ففي هذه العصور، كانت سلطة الكنيسة

1. صبحي حموي اليسوعي: **معجم الإيمان المسيحي**، ص 35.
2. متَّى هنري: **التَّفسير الكامل للكتاب المقدَّس**، ج1، ص15.
3. **التفسير التَّطبيقي للكتاب المقدَّس**، ص9.
4. محمَّد عمارة: **الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق؛ عالم المعرفة** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1985م)، ص 14.
5. فاطمة محمد عبد العليم عبد الوهاب: **أثر الدِّين في النظم القانونيَّة، دراسة مقارنة بين الإسلام والمسيحيَّة**؛ رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الحقوق؛ (جامعة القاهرة، 2001م)، ص542.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

تتحالف مع الإقطاع، وطبقة النبلاء، لتبتزَّ الشُّعوب، وترهقها، وتظلمها، وتقمعها بشتَّى أساليب القمع الإرهابية. وظلَّ الملوك يدَّعون السلطة الإلهية، ويدَّعون أنَّهم ما حكموا إلاَّ بأمرٍ إلهيٍّ. وظلَّت هذه الحيلة تنطوي على عامَّة النَّاس، حتَّى بدأت الشُّعوب تتململ، وتثور، وترفض هذه المقولات؛ يدفعها في ذلك فقرٌ وجوعٌ، وشعورٌ بالغبن والضياع[1]. فانبرت السلطة العلمانية إثر الثورة على السلطة الدِّينيَّة، لوضع تقنينات نابليون؛ غير أنَّ الفطرة السليمة تهدي إلى استبقاء الجيِّد دائماً أيًّا كان مصدره؛ والعقيدة تلزم معتنقيها بقواعد تراها لصيقة الصِّلة بها؛ وآمرةً بالنِّسبة لها كدينٍ تميَّز أتباعه من غيرهم من أتباع الأديان الأخرى؛ وهو ما تحقَّق هنا فعلاً بالنِّسبة للمسيحيَّة، رغم انحسار دور الكنيسة وقانونها الكنسيّ[2].

وتقرير الحقوق والكرامة كان أساسه القول بالحقوق الطبيعية؛ فقد صاغ توماس جيفرسون، مندوب فرجينيا وثيقة حقوق الإنسان الأمريكية [والتي كان لها أثرُها فيما بعدها من وثائق وإعلانات]... وقد استمدَّ جيفرسون تعاليمه -كما صرح هو- من الطبيعة وقوانينها[3]. ويتَّضح اختلاف مفهوم حقوق الإنسان المعاصر، والمستند إلى فكرة القانون الطبيعي، عن منظومة الحقوق في الإسلام. مع الانتباه إلى أنَّ التَّشابه، أو التطابق في عدد كبيرٍ من الحقوق الإنسانيَّة بين النظرية الإسلاميَّة، والشرعة الدَّولية لحقوق الإنسان (المعاصرة)؛ وهو أمرٌ غير مستغربٍ، لأنَّها تنطلق من أرضية المفهوم الإنساني الواحد؛ واختلاف هذه الحقوق نابعٌ من الخصوصيات الثقافية والحضارية للشعوب[4].

1. حسن مصطفى الباش: **حقوق الإنسان بين الفلسفة والأديان**، ط1، (جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1426هـ)، ص 103.

2. فاطمة محمد عبد العليم عبد الوهاب: **أثر الدِّين في النظم القانونيَّة، دراسة مقارنة بين الإسلام والمسيحيَّة**؛ مرجع سابق، ص547.

3. حسن مصطفى الباش: **حقوق الإنسان بين الفلسفة والأديان**، ص 107.

4. غانم جواد: **الحق قديم؛ وثائق حقوق الإنسان في الثقافة الإسلاميَّة**؛ القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، 2000م)؛ ص 20.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وحين صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ ورغم مشاركة متخصِّصين من مختلف القارات، يمثِّلون الاتِّجاهات الفكريَّة والدِّينيَّة والثقافية والحضاريَّة لشعوب العالم، في صياغته وبقيَّة الصكوك الدولية؛ إلاَّ أنَّها اتَّصفت بذات المرجعيَّة الغربيَّة النَّاتجة عن تلك الأجواء الفكريَّة والسياسيَّة الأوروبيَّة التي أسَّسها التنويريُّون من القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر؛ والتي تميَّزت بالليبيرالية والعلمانية...[1].

وتتكوَّن مفاهيم حقوق الإنسان من مجموعة الوثائق والصكوك الدَّوليَّة التي أصدرتها الأمم المتَّحدة؛ والتي تزيد عن 85 وثيقةٍ أمميَّة؛ سمِّيت إمَّا بالعهد، أو إعلان، أو اتِّفاقيَّة، أو حق، أو بروتوكول... تغطِّي تطلُّعات وأماني، وحاجات شعوب البلدان النَّامية، والحقوق الجماعيَّة للبشر؛ لتضع القواعد العامَّة لإعمال وحماية وترسيخ الحقوق الأساسيَّة للإنسان وحرِّيَّاته في كافة الدول؛ دون النظر لأيِّ اعتبار تمييزيٍّ كاللُّغة والجنس والعنصر واللون والنَّوع والطبقة الاجتماعيَّة والقومية والعشيرة[2].

في مقدِّمة كلِّ ذلك: **"الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"** سنة 1948[3]؛ ثمَّ في عام 1966 اعتمدت هيئة الأمم المتَّحدة وثيقتين دوليتين، ترتكزان على الحقوق التي تضمَّنها الإعلان العالمي، وهما: **"العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والثقافية والاجتماعية"**؛ و**"العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية"**. وقد صدَّقت عليها معظم الدول المنضمَّة لهيئة الأمم؛ كما اعتمدت الهيئة بروتوكولاً اختيارياً ملحقاً بالعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، يتعلَّق بحقوق الأفراد في التظلُّم إلى الهيئة التي تراقب تنفيذ العهد؛ وهي لجنة حقوق الإنسان. ويسمَّى العهدان الدوليان، والبروتوكول الاختياري تعرف معاً بـ "الشريعة الدولية لحقوق الإنسان"[4].

كما أصدرت الجمعية العامَّة للأمم المتَّحدة في 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1981

1. غانم جواد: الحق قديم؛ **وثائق حقوق الإنسان في الثقافة الإسلاميَّة**، ص 16.
2. المرجع نفسه، ص 15.
3. انظر كل تلك المواثيق في الجزء الخامس من كتاب: **موسوعة القانون الدولي**، لعيسى دباح، ط1، (عمان: دار الشروق، 2003م)، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان هنا: ج5، ص44-48.
4. عبد الرزاق رحيم صلال الموحي: **حقوق الإنسان في الأديان السماويَّة**؛ دار المناهج، ص226.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

إعلاناً بشأن القضاء على جميع أشكال التعصُّب والتَّمييز القائمين على أساس الدِّين أو المعتقد؛ جاء في المادة 3 منه: « يشكِّل التَّمييز بين البشر على أساس الدِّين، أو المعتقد إهانةً للكرامة الإنسانيَّة؛ وإنكاراً لمبادئ ميثاق الأمم المتَّحدة. ويجب أن يشجب بوصفه انتهاكاً لحقوق الإنسان؛ والوارد بالتَّفصيل في العهدين الدوليين الخاصَّين بحقوق الإنسان؛ وبوصفه عقبةً في وجه علاقاتٍ ودِّيَّةٍ، وسلميَّةٍ بين الأمم». وتطالب المادة الرابعة من الإعلان نفسه بأن تتَّخذ جميع الدول تدابير فعالة، لمنع، واستئصال أيِّ تمييزٍ على أساس الدِّين والمعتقد. ولاتِّخاذ التدابير الملائمة لمكافحة التعصُّب القائم على أساس الدِّين، أو المعتقدات الأخرى في هذا الشَّأن[1].

المطلب الثالث: الحفاظ على الكرامة الإنسانيَّة

من خلال ما سبق بيانه في المطلب الذي مضى؛ وما وقفنا عليه من ثبوت كرامةٍ للإنسان لا ريب فيها؛ يبرز تساؤلٌ، وهو الآتي: هل الكرامة الإنسانيَّة معرضةٌ للتنقُّص أو الإلغاء؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فما السبيل إلى الحفاظ عليها؟ فلنعرض للجواب من ثلاث زوايا كالآتي:

1. من خلال النص الديني الإسلامي

إذا كان ثبوت الكرامة الإنسانية في الإسلام ابتدأ بالاصطفاء والخلق؛ فإنَّ تلك الكرامة تمتدُّ في الزمان، خلال مختلف أطوار خلق الأفراد، وتقلباتهم العمريَّة بعد ميلادهم: طفولة، وشبيبة، وكهولةً، ثمَّ شيبةً؛ بل ولا يزيلها الموت، فللميِّت حرمته وكرامته؛ ودار الكرامة الحقَّة هي في الآخرة، وإنَّما في دار السلام، في الجنَّة.

فإذا كانت دار الكرامة في الجنَّة؛ فدار المهانة هي النَّار؛ وهنا يبرز الكلام عن كرامةٍ زائدة عن القدر الذي يتساوى فيه البشر؛ كرامةٍ تُكتسب بأسبابها؛ ويحاسب المرء على تضييعها؛ فالذي يهين نفسه بالعمل السيِّء، يهان يوم القيامة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ

1. فيوليت داغر: **الطائفيَّة وحقوق الإنسان**، (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان)، ص33.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[1]. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[2].

فالمرء إذن يصون كرامته بامتثال سبيل الكرامة بشرع الله؛ فهذا عروة بن مسعود بن معتب الثقفي، كان من أكابر قومه، أسلم ودعى قومه إلى الإسلام فقتلوه. قال: كرامةٌ أكرمني الله بها، وشهادةٌ ساقها الله إليَّ[3].

ولا يتعلَّق الأمر بالآخرة فقط، فعلى المرء أن يحفظ كرامته في الدنيا؛ فقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى؛ ونحوها من أقواله صلى الله عليه وسلم؛ ولا بدَّ أن تظهر الكرامة الإنسانية في إكرام من أكرمهم الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»[4]. ومن الإكرام ورحمة الصغير تسمية المولود بالاسم الحسن[5].

وقال كذلك: «**إذا أتاكم كريم قومٍ، فأكرموه**»[6]. ثمَّ إنَّ الكرامة الإنسانيَّة بحسب النَّص الإسلامي لا تتحقَّق بالحقوق فقط، بل بإقامة الواجبات قبل ذلك. ولذلك جاءت التشريعات الحكيمة في الإسلام؛ فبمنظومتها كلّها تتحقق الكرامة الإنسانية للجميع لا للأفراد وحدهم؛ بل وحتَّى مع الأعداء: فعن سليمان بن بريدة عن أبيه: «**كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيشٍ، أو سريَةٍ، أوصاه في خاصَّته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثمَّ قال: أُغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا**

1. طه: 124- 126.
2. الدخان: 48-49.
3. عز الدِّين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني بن الأثير: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ج3، ص405.
4. الترمذي، ح1920، ص439.
5. خالد سليم عبد الفتاح: **الحرِّيَّات في الشَّريعة الإسلاميَّة –مقارنةً بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان**، ط1، (بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية)، 2012م، ص 28.
6. ابن ماجه: الأدب، ح3712، ص 615.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

من كفر بالله. أُغزوا ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا؛ ولا تقتلوا وليداً...»[1].

وقد جاء فيها تحريم الاستهزاء والسخرية لأنهما انتقاص للكرامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

ومن مقتضى هذه الكرامة في شريعة الإسلام مراعاة حرمة المرء في دمه، وماله، وعرضه؛ وأن يحترم شرفه وسمعته؛ وألا ينال أحدٌ من حرمة أخيه، أو يجرح مشاعره وإحساساته، فليس لأحدٍ أن يسُبَّ أحداً، أو يشتمه، أو يحقره؛ ومن مقتضى هذه الكرامة كذلك أن لا يعتقل إنسانٌ، أو يحبس، أو يعزَّر، أو يُعذَّب، أو يهان، أو يخوَّف في غير حقٍّ شرعيٍّ مستندٍ إلى قوانين الإسلام؛... أيضاً مراعاة حرمة البيت بغير إذن صاحبه أو يتجسَّس على من فيه من الخارج، أو يتبصَّص من ثقب فيه... وألاَّ يعتدى على حرمته في نفسه بتفتيشه، أو فتح مراسلاته إلاَّ إذا كان بوجه حقٍّ، وكان في سلوكه ما يريب[3].

2. من خلال النَّص الديني المسيحي

إنَّ الإنسان في التصور المسيحي، لأجله وُجدت السماء والأرض، والبحر، وسائر الخليقة؛ وخلاصُهُ هو الذي علَّق عليه الله مثل هذه الأهمية، حتَّى إنَّه لم يوفِّر ابنه الوحيد نفسَهُ في سبيله[4]. بحسب ما تمَّ سوقه عن التدبير الخلاصي.

وقد جاء الأمر بالإكرام عندهم في الأناجيل: قال المسيح عليه السلام فيما يُنسب إليه في إنجيل متَّى: « **فإنَّ الله أوصى قائلاً: أكرِم أباك، وأمَّك. ومن يشتم أباً أو أمًّا،**

1. مسلم، ح4497، ص822.
2. الحجرات: 11.
3. محمَّد الخضر: **الإسلام وحقوق الإنسان**، (بدون بيانات نشر)، ص 44-47.
4. **التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة**، ص 125.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

فليمت موتاً»[1].

كما إنَّ أقصى كرامة الإنسان أن تهان كرامته في سبيل الحق: « **وأمّا يسوع فقال لهم: «ليس نبيٌّ بلا كرامةٍ إلاّ في وطنه وفي بيته** »[2].

وكذلك قال بولس لأهل كورنثوس، في رسالته الأولى إليهم: « **وأمّا نحن [يقصد رسل المسيح عليه السلام] فبلا كرامةٍ. إلى هذه السّاعة نجوع ونعطش ونعرى ونُلكم وليس لنا إقامةٌ، ونتعب عاملين بأيدينا. نُشتم فنبارِك، نُضطهد فنحتمل، يفترى علينا فنعظ. صرنا كأقذار العالم ووَسَخِ كلِّ شيءٍ إلى الآن»**[3].

غير أنَّنا نجد أنَّ التَّشريعات المسيحية من الصعب أن نستنبط ما يتم به حفظ الكرامة الإنسانية؛ إلا بشيء من الاستقراء للتشريعات الأخلاقية؛ وذلك لقلَّة التشريعات المسيحيَّة أصلاً.

ويمكن أخيراً الإشارة أنَّه قد صدر بيان في الحرية الدِّينيَّة Dignitatis humanae: أصدره المجمع الفاتيكاني الثاني في 1965/12/7. ورد في هذا البيان أنَّ الحقَّ في الحرِّيَّة الدِّينيَّة مبنيٌّ على كرامة الشَّخص البشريِّ؛ إذ يجب عليه أن يعتنق الوحي الإلهي بملء الحرِّيَّة؛ ورفض البيان صراحةً كلَّ إكراهٍ في الدِّين[4].

3. من خلال المواثيق والقوانين

تحاول المواثيق الدولية سنَّ قوانين، وتشريعاتٍ، وإلزام الأسرة الدوليَّة بتطبيقها من أجل حماية حقوق الإنسان، وصون كرامة النَّاس؛ ويلفت نظرنا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بدايته الآتية: «لـمَّا كان الاعتراف بالكرامة المتأصِّلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية؛ وبحقوقهم المتساوية الثابتة، هو أساس الحرِّية والعدل والسلام في

1. مت 15/ 4.
2. مت 13/ 57.
3. 1 كور 4/ 9-13.
4. صبحي حموي اليسوعي: **معجم الإيمان المسيحي**، ص 123.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

العالم...»[1].

والمادة الأولى منه تقرِّر الآتي: «يولد جميع النَّاس أحراراً، متساوين في الكرامة والحقوق؛ وقد وُهبوا عقلاً، وضميراً؛ وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء».

وتنصُّ المادة الرابعة على الآتي: «لا يجوز استرقاق، أو استعباد أيِّ شخصٍ؛ ويحظر الاسترقاق، وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما».

والمادة الخامسة تقول: «لا يعرض أيُّ إنسانٍ للتَّعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملات القاسية أو الوحشية، أو الحاطَّة بالكرامة».

وفي المادة الثانية عشر: «لا يعرض أحدٌ لتدخل تعسُّفيٍّ في حياته الخاصَّة، أو أسرته، أو مسكنه، أو مراسلاته؛ أو لحملاتٍ على شرفه وسمعته. ولكلِّ شخصٍ الحقُّ في حماية القانون من مثل هذا التدخُّل، أو تلك الحملات».

وممَّا ورد في المادة الثالثة والعشرين الآتي: «لكلِّ فردٍ يقوم بعملٍ، الحقُّ في أجرٍ عادلٍ مرضٍ؛ يكفل له ولأسرته عيشةً لائقةً بكرامة الإنسان؛ تُضاف إليه عند اللُّزوم وسائل أخرى للحماية الاجتماعيَّة»[2].

المطلب الرابع: آفاق حفظ الكرامة الإنسانية بين الدِّين والقانون

1. العلاقة بين الدِّين والقانون

إنَّ العلاقة بين كلٍّ من الدِّين والقانون، جدُّ وثيقة، وقديمة؛ بدأت مع بداية نشأة القانون. إذ إنَّ وحدة مصدرهما: "رجال الدِّين" أدَّت إلى امتزاج قواعدهما، وصعوبة فصلها وتمييزها. وكان الشعور بإلزام قواعد القانون يأتي نتيجة لاختصاص رجال الدِّين بإصدارها، ونسبتها للآلهة[3].

1. انظر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المنشور على موقع هيئة الأمم المتَّحدة، اقتبس يوم 2013/07/17م؛ عن الرابط الآتي: http://www.un.org/ar/documents/udhr

2. المصدر نفسه.

3. فاطمة محمد عبد العليم عبد الوهاب: **أثر الدِّين في النظم القانونيَّة، دراسة مقارنة بين الإسلام**

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

والقطيعة التي حصلت بين الدِّين والقانون في العصر الحديث، كانت بسبب ملابسات خاصَّة كانت في أوروبا المسيحية، بعد طغيان الكنيسة، وتوسع سلطانها؛ فهذا الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن La Déclaration des Droits de l'Homme et du Citoyen المؤرَّخ في 26 أوت 1789م؛ وهو الذي يحدِّد الإطار الإيديولوجي الذي قامت على أساسه الثورة الفرنسية؛ نجده قد نسخ السلطان القائم قبله، والذي كان يتمثَّل في الملك، الذي يستمد سلطته من الله مباشرة[1].

ونرى أخيراً وجوب الإشارة إلى خصائص الميثاق الدولي؛ وصعوبة صياغته متجانساً؛ وذلك بسبب الخصوصيَّات الدِّينيَّة، والثقافيَّة؛ وتنوُّع الأطماع السياسيَّة، ونحوها من الأمور؛ لنقرِّر أنَّ أعظم عقبةٍ أمامه هو الاختلاف في الدِّين أساساً.

2. الحق قديم والقانون حادث

فأساس القانون هو الدين؛ الكلام عن حقوق الإنسان عرفته الديانات القديمة[2]. وقد اقتبست الشرائع والقوانين الكثير من أسفار التوراة [وهي ملأى بالتَّشريعات] إمَّا في صورة دساتير، أو أعرافٍ سائدة؛ وهذا يُعدُّ دليلاً على أنَّها ساهمت بقوَّةٍ في تشكيل الضمير، والوجدان البشري منذ فجر التَّاريخ[3].

كما يمكن القول: إنَّ القانون الكنسي يعتبر من المصادر التَّاريخيَّة للقانون الفرنسي الحديث؛ كما يعدُّ قانوناً مشتركاً في كلِّ الشُّعوب المسيحيَّة بما فيها شعوب أوروبا المتحضِّرة؛ إذ لعب دور القانون الدولي بالنِّسبة لها فيما يتعلَّق ببعض النُّظم القانونيَّة المتَّصلة ببعض النُّظم القانونيَّة[4].

والمسيحيَّة، ص79.

1. قام بالتعليق عليها Pascal Nicollier انظره والنَّص الأصلي للإعلان في ملف pdf على الموقع التالي: www.liberte.ch

2. عبد الرزاق رحيم صلال الموحي: **حقوق الإنسان في الأديان السماويَّة**، انظر الفصل الأوَّل: **حقوق الإنسان في الأديان والمعتقدات القديمة والمندثرة**، من ص 15 إلى ص44.

3. متَّى هنري: **التَّفسير الكامل للكتاب المقدَّس**، ج1، ص7.

4. فاطمة محمد عبد العليم عبد الوهاب: **أثر الدِّين في النظم القانونيَّة، دراسة مقارنة بين الإسلام =**

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ومن الأدلَّة كذلك أنَّ الدِّين سابق على القانون، أنَّ الاصطلاح: "الكرامة الإنسانيَّة" لا يظهر في الإعلانات الصادرة في الولايات المتحدَّة الأمريكيَّة وفرنسا في نهاية القرن الثامن عشر؛ ولا في الوثائق اللاحقة خلال القرنين اللاَّحقين؛ باستثناء شولشر[1] Schoelcher حين كان ملغي الاستعباد سنة 1848م؛ حيث أعلن أنَّ: "الاستعباد هو نيلٌ من كرامة الفرد". والقانون الأساسي لجمهورية ألمانيا الفيدرالية للثالث والعشرين من ماي سنة 1949م قرَّر في الفقرة الأولى من البند الأوَّل منه بأنَّ كرامة الإنسان لا مساس بها[2].

على حين نجد أنَّ الإسلام قد بلغ في الإيمان بالإنسان، وفي تقديس حقوقه إلى الحدِّ الذي تجاوز بها مرتبة الحقوق؛ عندما اعتبرها ضروراتٍ، ومن ثمَّ أدخلها في إطار الواجبات... هي في نظر الإسلام ليست فقط حقوقاً للإنسان من حقِّه أن يطلبها، ويسعى في سبيلها، ويتمسَّك بالحصول عليها، ويحرم صدُّه عن طلبها. وإنَّما هي ضروراتٌ واجبةٌ لهذا الإنسان، بل إنَّها واجباتٌ عليه أيضاً. إنَّها ليست مجرَّد حقوق من حقِّ الفرد أو الجماعة أن يتنازل عنها أو عن بعضها[3].

ومن هنا لا نستغرب من أنَّ العزَّ بن عبد السلام عرَّف حقوق الإنسان، بأنَّها كلُّ ما يتعلَّق بجلب المصالح ودرء المفاسد. وقد تناولت تعاليم الإسلام هذه الحقوق من حيث ما على الإنسان من واجباتٍ والتزاماتٍ، تدخل في مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة الخمسة التي تحقِّق مصلحة الإنسان وهي: حفظ الدِّين، والنَّفس، والعقل، والمال، والنسل. وهي ضروريَّةٌ لبقاء البشريَّة؛ لأنَّها تشمل كلَّ ما للإنسان من مصالح، وواجبات، لنفسه، أو للآخرين[4].

والمسيحيَّة، ص548.

1. صحفي، وسياسيٌّ، ولد في 22 جويلية 1804م بباريس، وتوفي في 26 ديسمبر 1893م؛ أحد أكبر محامي فرنسا الذين ألغوا الاستعباد في الإمبراطورية الفرنسية. أنظر: Encyclopedia Britanica, DVD, 200.

2. La Dignité Humaine : La réinsertion socio-juridique des démunis, p.18

3. محمَّد عمارة: **الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق**، ص 14-15.

4. **الموجز في الحقوق في الإسلام**، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلاميَّة: مؤسَّسة آل البيت، =

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وإن ارتباط الحقّ بالشارع في الإسلام، ضمانٌ وتوثيقٌ للعدل لا ذريعة للاستبداد[1]. كما أنَّ ارتباط الحق بالشارع كفل التقرير المتوازن لحق الفرد وحق الجماعة؛ وللحقوق والواجبات[2]. وفي المقابل نجد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يخلو من وازع الالتزام به، إلاَّ أن يكون التزاماً أدبيًّا، ابتعاداً بالدولة عن الإشارة إليها بالدكتاتوريَّة والاستبداد. وأمَّا في الشريعة الإسلامية فحقوق الإنسان جزءٌ من ذات الدِّين: نكرانها كفرٌ، والإخلال بها معصيةٌ، وتأخيرها ظلمٌ[3].

كما إنَّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ينطلق من نظرته لمصلحة الفرد، والسعي لتحصيل حقوقه، والذبِّ عنها في وجه الجماعة. في الوقت الذي ترى فيه شريعة الإسلام توازناً بين مصلحة الفرد، ومصلحة الجماعة على حدٍّ سواء؛ اعترافاً منها بوجودهما، وتوفيقاً بينهما عند التعارض، ومواءمةً عند التضارب[4].

كما جعل الإعلان الدولة وحدها المسؤولة عن تحقيق حقوق الإنسان؛ وأمَّا الشريعة الإسلاميَّة فقد أشركت الفرد والمجتمع والدولة في قيام حقوق الإنسان[5].

3. الكرامة مرتبطة بمصير الإنسان والقانون محدود بموت الإنسان

فالكرامة في الإسلام تصحب الإنسان بعد موته إلى الآخرة؛ فقد علِّمنا النبي ﷺ في الدعاء للميت أن نقول: «**اللهمَّ اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نُزُله،**

= 1995م؛ ص41.

1. محمَّد فتحي عثمان: **حقوق الإنسان بين الشَّريعة الإسلاميَّة والفكر القانوني الغربيّ**؛ ط1؛ (بيروت: دار الشروق: بيروت، 1982م)، ص37.

2. المرجع نفسه، ص51.

3. محمَّد نوح القضاة: **الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ضوء كتاب "الحسبة في الإسلام"**؛ المجلَّة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، 2006م، ص110.

4. محمَّد نوح القضاة: **الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ضوء كتاب "الحسبة في الإسلام"**، ص110.

5. المرجع نفسه، ص111.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ووسّع مدخله...»[1]. والنبيُّ ﷺ مرَّت به جنازةٌ فقام؛ « **فقيل له: إنَّها جنازة يهوديٍّ، فقال: أليست نفساً؟**»[2].

وأمرت الشريعة بدفن الأموات، حتَّى وإن كانوا كفَّاراً؛ فقد أمر رسول الله ﷺ بجمع جثث شرار الخلق، بعد معركة بدر، وأهال عليهم التراب؛ إكراماً لأصلهم، لا لوصفهم[3].

فالوثيقة تجمع بين حقوق الأفراد وحقوق الشعوب، إلاّ أنها أكثر تركيزاً على حقوق الأفراد مع المزيد من التفصيل. وتركِّز على الحقوق أكثر مما تركز على الواجبات؛ مما أدَّى إلى المعيار المزدوج في التطبيق: الحقوق فقط داخل أوربا الغربية، من دون واجباتٍ على الغرب، وامتدادٍ لهذه الحقوق خارجها[4].

كلُّ إنسانٍ، يمثل في ذاته قيمةساميةً ومطلقة؛ لأنَّ مبدع الطبيعة البشرية حباهُ نفساً خالدةً؛ لذا تطالب الكنيسة بأن تعاد للشَّخص البشريِّ كرامتُهُ التي أعطاها الله إياها منذ البدء[5].

1. رواه مسلم، ح 2229، ص431.
2. البخاري، ح1312، ص 271.
3. خالد سليم عبد الفتاح: **الحرِّيَّات في الشَّريعة الإسلاميَّة –مقارنةً بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان**، ص 28.
4. سامر نمرود عزيز: **كرامة الإنسان في المفهوم المسيحي**، موقع سابق
5. المصدر نفسه.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

خاتمة

يمكن جمع أهمّ النتائج التي تمَّ التوصُّل إليها، من خلال مختلف منعرجات البحث، وذلك في شكل نقاطٍ كالآتي:

- تعدُّ مسألة: "**الكرامة الإنسانية**" أساساً في انبثاق جميع الحقوق الإنسانيَّة؛ المستندة إلى خلق الإنسان ووظيفته فوق الأرض، وما حباه الله من نعمٍ تدلُّ على شرفه.
- الحقُّ قديمٌ، وكذلك الكلام فيه؛ والدِّين سابق للقانون في حماية الكرامة الإنسانيَّة، والحقوق المنبثقة منها؛ والقوانين والمواثيق الدوليَّة بُنِيت على القول بالكرامة الإنسانيَّة.
- ثمَّة تداخلاتٍ عبر التَّاريخ، وتقاطعاتٌ فيما بين الدِّين والقانون، سببها –فيما نرى– كونُ الدِّين شيئاً لا ينفك، ولم ينفك عن الاجتماع والعمران البشري عبر كامل التَّاريخ، بل كان الأثر الدِّيني بارزاً وحاضراً في صياغات القوانين، حتى في تقريرات من يعادون الظاهرة الدِّينية؛ هذا من جهةٍ؛ ومن جهةٍ أخرى نجد بعض التوافقات والتقاطعات فيما بين النصوص والتصورات في الإسلام والمسيحيَّة؛ وذلك راجعٌ إلى الأصل الواحد الذي صدر عنه الوحي إلى محمَّدٍ وعيسى عليهما الصلاة والسلام؛ وما خالف ذلك فهو من عبث أيدي البشر بالوحي الإلهي.
- إنَّ إصابة القوانين الوضعية في المواثيق الدولية لحقوق الإنسانيَّة في بعض المقولات والتَّشريعات التي تحفظ الكرامة الإنسانيَّة، لا يُصحِّح مسلكَها أو مسارها، أو يجعلنا نعمِّم الحكم لها بالإصابة في كلِّ ما يصدر منها. فإنَّ ثمَّة فطرةً إنسانيَّةً، فطر الله تعالى عليها النَّاس، تجعل أصحاب العقول يتَّفقون حول بعض المعاني الإنسانيَّة، والمتضمَّنة في الهداية الإلهية لهم؛ غير أنَّ الأهواء تُزِلُّهم في الناحية التشريعيَّة في سنِّ القوانين؛ فعقول النَّاس محكومةٌ بالظروف والملابسات التي يحيونها، وهم محدودون بحدود عقولهم؛ ولكنَّ الشريعة الربَّانيَّة صادرةٌ من الذي خلق العقول، والظروف، والملابسات؛ وهو الذي يكرم ويهين؛ مالك الملك سبحانه.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

- النَّص الدينيُّ في الإسلام –قرآناً وسنَّةً– يرسم في تمام وضوحٍ أساس التكريم للإنسان، وثبوت الكرامة له: خلقاً، واكتساباً، وإلى الممات، وفي البرزخ، ويوم يبعث الله من في القبور، إلى غاية الدخول إلى دار الكرامة دار السلام.
- النَّص الدِّيني المسيحيُّ، الممثَّل في الكتاب المقدَّس –بعهديه القديم والجديد– يثبت الكرامة الإنسانيَّة في خطوطها العريضة التي تتقاطع مع ما وقفنا عليه في الجانب الإسلاميِّ؛ ولكنَّه بعبث الأيادي به، نجده يشطُّ عن الصواب، حين يربطه بالتدبير الخلاصي الذي يشكِّل هيكل التصوُّر المسيحي للديانة، بما يعرف بالتَّدبير الخلاصي.
- صياغة قوانين حقوق الإنسان كانت من الذين يستعمرون، ويستعبدون النَّاس، وبانتهاء الاستعمار الكلاسيكي، لم تنته الأطماع وبسط النفوذ والسيطرة، بل جاءت آلياتٌ لها –تحت ذريعة حماية الحقوق والكرامات– تسمح بالتدخل في الشؤون الدَّاخلية للبلدان، من دون مراعاة الخصوصيات المتباينة للدول والشعوب؛ وهو ما يجعل ذوي العقول لا يسلِّمون من دون تمحيص لأيِّ قرارٍ أو أمورٍ، لمجرَّد تغليفها بشعارات الكرامة وحقوق الإنسان.
- الطابع الإلزامي والالتزامي للدِّين، والذي يبلغ أقصى درجات الوضوح في الشَّريعة الإسلاميَّة، يجعل القوانين البشريَّة، التي تريد التَّشريع لحماية الحقوق الإنسانية وحفظ الكرامة، يجعلها قاصرةً محدودةً.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image